والحق سبحانه هو القائل :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

إذن : فقد جاء الحق سبحانه فى آية الليل بالسمع[1] ، وجاء فى آية النهار بالأبصار ، وبعد أن تكلم الله سبحانه عن مجال الحركة بالنهار والراحة فى الليل ، يأتى الكلام عن الينبوع الذى يجب أن تَصْدُرَ عنه الحركة أو السكون ، وهو ضرورة الامتثال لأمر إله واحد حتى لا تصطدم حركتك بأمر إله آخر يقول ما يناقض حركة الإله الأول .

وكما تتحرك فى النهار ، وترتاح فى الليل لا بد أن تكون حركتك صادرة عن أمر واحد ، هذا الأمر الواحد صادر من الآمر الواحد ، وهو الله تعالى الذى تعبده بلا شريك ، ومن يقول بغير ذلك إنما يربك حركة الحياة .

والله سبحانه يقول :

﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون]

ولذلك يقول الله سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾

(١) وهنا يلفتنا فضيلة الشيخ إلى الإعجاز القرآنى فى أسراره ، حيث وضع الحاسة فى مكان وظيفتها التى تستطيع الأداء فيه ، فجعل الإبصار للنهار لأنه مكانه ، وجعل السمع لليل حيث إن البصر لا يؤدى مهمته ، وإنما المهمة هنا تخص السمع ، وهذا كمال الأدب وجلال الأسرار فى كتاب الله بلاغة بيان ، ومعنى يرقى .

ونفس نص الآية الكريمة يكذِّبهم فيما يدَّعونه .

ومثال ذلك : أنك حين تقول : «اتخذ فلان بيتاً» أى : أن فلاناً له ذاتية سابقة على اتخاذه للبيت ، وبها اتخذ البيت ، فإذا قيل : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا .. (٦٨) ﴾ [يونس]

فهذا اعتراف منهم بكمال الله تعالى وذاتيته قبل أن يتخذ الولد .

وهم قد اختلفوا فى أمر هذا الولد ، فمنهم من قال : إن الملائكة هن بنات الله وكذَّبهم الحق سبحانه فى ذلك ، ومنهم من قال : عزير ابن الله وهم اليهود (١) وقد كذَّبهم الله سبحانه في ذلك ، وطائفة من المسيحيين قالوا : إن المسيح ابن الله (٢) ، وكذَّبهم الحق سبحانه فى ذلك (٣) .

ثم ما الداعى أن يتخذ الله الولد؟

هل استنفد قوته حتى يساعده الولد ؟!

وهل يمكن أن يضعف سبحانه - معاذ الله - فيمتد بقوة الولد أو يعتمد عليه؟!

مثلما يقال حين يواجه شيخٌ شاباً ، ويعتدى الشاب على الشيخ ، فيقال للشاب : احذر ؛ إن لهذا الشيخ ولداً أقوى منك ؛ فيرتدع الشاب ، أو أن يقول الشيخ للشاب : إن أبنائى يفوقونك فى القوة ، وفى هذا اعتداد بالأولاد .

ويريد الحق سبحانه أن يغفل كل هذه الدعاوى ولتكون حركة الحياة متماسكة متلازمة ، لا متعارضة ولا متناقضة ؛ لذلك ينبغى أن يكون

---

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ .. (٣٠) ﴾ [التوبة] .

(٢) يقول الله عز وجل : ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ .. (٣٠) ﴾ [التوبة] .

(٣) يقول الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) ﴾ [التوبة] .

المحرك إلهاً واحداً تصدر منه كل الأوامر ، فلا تعارض فى تلك الأوامر ؛ لأن الأوامر إن صدرت عن متعدد فحركة الحياة تتصادم بما يبدد الطاقة ويفسد الصالح.

ولذلك لا بد أن يكون الأمر صادراً من آمر واحد يُسْلِّم له كل أمر ، وهذا الإله منزَّه عن كل ما تعرفه من الأغيار ، فله تنزيه فى ذاته ؛ فلا ذات تشبه ذاته ، ومنزَّه فى صفاته ؛ فلا صفة تشبه صفته ، ومنزَّه فى أفعاله ؛ فلا فعل يشبه فعله [1].

وحتى نضمن هذه المسألة لا بد أن يكون الإله واحداً ، ولكن بعضاً من القوم جعلوا لله شركاء ، ومن لم يجعل له شريكاً ، توهَّم أن له ابناً وولداً .

ونقول لهم:

إن كلمتكم : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا .. (٦٨) ﴾ ترد عليكم ؛ لأن معنى اتخاذ الولد أن الألوهية وُجِدَتْ أولاً مستقلة ، وبهذه الألوهية اتخذ الولد.

ومن المشركين من قال: إن الملائكة بنات الله .

فردَّ عليهم الحق سبحانه :

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ [2] (٢٢) ﴾ [النجم]

والكمال كله لله سبحانه فهو كمال ذاتى ؛ ولذلك يأتى فى وسط الآية ويقول تعالى :

---

(١) وذلك مصداق لقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ [الشورى] ، فهو سبحانه لا مثل له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله.

(٢) ضاز فى الحكم: أى: جار. وقسمة ضيزى وضوزى أى: جائرة ليس فيها حق ولا عدل. [لسان العرب : مادة (ض ى ز) - بتصرف].

﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ .. (٦٨) ﴾ [يونس]

وسبحانه تعنى: التنزيه ، وهو الغنى أى: المستغنى عن مُعينْ كما تستعينون أنتم بأبنائكم ، وهو دائم الوجود ؛ فلا يحتاج إلى ابنَ مثل البشر ، وهم أحداث تبدأ وتنتهى ؛ لذلك يحبون أن يكون لهم أبناء كما يقول الشاعر:

* ابنى يا أنا بعد ما أقْضَى *

ويقال: «من لا ولد له لا ذكْر له» ، كأن الإنسان لما علم أنه يموت لا محالة أراد أن يستمر فى الحَياة فى ولده.

ولذلك حين يأتى الولد للإنسان يشعر الإنسان بالسرور والسعادة ، والجاهل هو من يحزن حين تلد له زوجته بنتاً ؛ لأن البنت لن تحمل الاسم لمن بعدها ، أما الولد والحفيد فيحملان اسم الجد ، فيشعر الجد أنه ضمن الذكْر فى جيلين.

إذن: فاتخاذ الولد إما استعانة وإما اعتداد ، والحق سبحانه غنىٌّ عن الاستعانة ، وغنى عن الاعتداد ؛ لأنك تعتد بمن هو أقوى منك ، وليس هناك أقوى من الله تعالى ، وهو سبحانه لا يحتاج لامتداد ؛ لأنه هو الأول وهو الآخر ، وعلى ذلك ففكرة اتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى لا تصح على أى لون من ألوانها.

ولذلك يقول الحق سبحانه مرادفاً لتلك الفكرة: ﴿سُبْحَانَهُ[1]﴾ لأنها تقطع كل احتمالات ما سبقها ، ويُتْبِع ذلك بقوله: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ لأنه

---

(١) سَبَح يَسْبَحُ من باب فتح: سَبْحا ، وسباحة: عام ومرَّ فى الماء . ومن المجاز سبح الجواد ، أى جرى كأنه يسبح فى الماء ، ومن المجاز سبحت النجوم ، أى: سارت فى أفلاكها . قال تعالى: ﴿ .. كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء] وعوملت معاملة العقلاء لانتظامها فى سيرها . وسبِّح اسم ربك: نزِّه اسمه عن كل نقص وصفه بكل كمال أو قل: سبحان الله ومعناها أنزه الله تنزيهاً عن النقص وأصفه بالكمال ، وهو منصوب على المصدرية ، ومصدر نائب عن فعله . [القاموس القويم - بتصرف]

غنى عن اتخاذ الولد ، وغنى عن كل شىء ، وقوله: ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيه له ، والتنزيه : ارتفاع بالمُنَزَّه عن مشاركة شىء له - فى الذات أو الأفعال .

وإذا ورد شىء هو لله وصفٌ ولخَلْقه وصفٌ ، فإياك أن تأخذ هذه الصفة مثل تلك الصفة .

فإن قابلت غنياً من البشر ، فالغنى فى البشر عَرَضٌ ، أما غنى الله تعالى ففى ذاته سبحانه .

وأنت حى[1] والله سبحانه حى ، ولكن أحياتك كحياته؟ لا ؛ لأن حياته سبحانه لم يسبقها عدم ، وحياتك سبقها عدم ، وحياته سبحانه لا يلحقها عدم ، وأنت يلحق حياتك العدم .

والله موجود وأنت موجود ، لكن وجوده سبحانه وجود ذاتىٌّ ، ووجودك وجود عَرَضِىٌّ .

وإذا قال الحق سبحانه :

إن له - سبحانه وتعالى - يداً ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. (١٠) ﴾ [الفتح]

فلا يمكن أن تكون يد الله سبحانه مثل يدك ؛ لأن ذاته سبحانه ليست كذاتك ، وصفاته سبحانه ليست كصفاتك ، وهو سبحانه القادر الأعلى ، ولا يمكن أن يكون مقدوراً لأحد .

ولذلك حين يتجلَّى الله سبحانه لخلقه ، فسوف يتجلى بالصورة التى

(١) حَيِىَ يَحْيا ، كرضى يرضى وحىَّ بالإدغام يحيا حياة وحيواناً ضد مات فهو حى ، وهو خاص بكل ذى روح ، ويطلق مجازاً على الأرض . قال تعالى : ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .. (٩) ﴾ [فاطر] ويستعار أيضاً لمعنى الصلاح والإيمان ، قال تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ .. (١٢٢) ﴾ [الأنعام] والحى من أسماء الله الحسنى ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة] والحياة الدنيا تقابلها الحياة الآخرة ، قال تعالى : ﴿ .. وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) ﴾ [آل عمران] والمحيا : مصدر ميمى بمعنى الحياة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) ﴾ [الأنعام] أى : حياتى وموتى .

تختلف عن كل خيال العبد ، وهذه الصورة تختلف من عبد إلى آخر ، ولو كانت الصورة التى يتجلى بها الله سبحانه مقدوراً عليها لكان معنى ذلك أن هناك ذهناً بشرياً قد قدر على الإحاطة بها . وما خطر ببالك فالله سبحانه بخلاف ذلك ؛ لأن ما خطر بالبال مقدور عليه لأنه خاطر ، والله سبحانه لا ينقلب أبداً إلى مقدور عليه .

وأنت حين تأتى بمسألة فى الحساب أو الهندسة - مثلاً - وتعطيها لتلميذ ويقوم بحلها ، فمعنى ذلك أن عقله قد قدر عليها ، أما إن جئت لتلميذ فى المرحلة الإعدادية - مثلاً - بمسألة هندسية مقررة على طلبة كلية الهندسة ؛ فعقله لن يقدر عليها .

إذن : لو أن الإنسان قد أدرك شيئاً عن الله غير ما قاله الله لانقلب الإله إلى مقدور عليه ، والحق سبحانه مُنَزَّه عن ذلك ؛ لأنه القادر الأعلى الذى لا ينقلب أبداً إلى مقدور .

لذلك يعلِّمنا الحق سبحانه أن نقول تنزيهاً لله تعالى كلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ، وهو التنزيه الواجب عن كل شىء يخطر ببال الإنسان عن الله تعالى ، وهذه السبحانية أو هذا التنزيه هو صفة ذاتية فى الله تعالى ، قبل أن يوجد شىء ، وبعد أن خَلَق الخَلْق ، فعلى كل المخلوقات تنزيهه ، وبدأ الخلق فى التسبيح .

والتسبيح فعل مستمر لا ينقطع ولا ينقضى ؛ لذلك تجد استدلالات القرآن فى السور التنزيهية [1] تؤكد ذلك ، فيقول الحق سبحانه :

---

(١) فتجد التسبيح فى الماضى : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾ [الحديد] وفى المضارع : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [التغابن] وفى الأمر : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى] وفى المصدر سبحانه ، وبهذا نلاحظ أن الماضى يسبحه ، والمستقبل يسبحه والحال يذكره ، والكون مع الزمن فى تسبيح مستمر : ﴿.. وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾ [الإسراء] .

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ..(١)﴾ [الإسراء]

وإياك أن تظن أن محمداً ﷺ قد سرى بقرار من نفسه ، بل الذى أسرى به هو الحق سبحانه ، فلا تظن أن المسافة يمكن أن تمنع مشيئة الحق المطلقة ، ولا المكان ، ولا الزمن ؛ لأن الفعل منسوب لله تعالى ، ولا يمكن أن نقيس فعلاً منسوباً لله تعالى بقياس الزمان أو المكان ، أو حسب قانون الحركة النسبية ؛ لأن الحق سبحانه له طلاقة القدرة ، وأنت بشر مجرد حادث محدود الزمان والمكان.

وأنت إذا سرْت من هنا إلى الإسكندرية - مثلاً - على قدميك فستقطع المسافة فى أسابيع ، وإن امتطيت دابة فقد تأخذ فى الوصول إلى الإسكندرية أياماً ، وإن ركبت سيارة فسوف تقطع المسافة فى ساعتين ، وإن ركبت صاروخاً ، فستصل خلال دقائق.

أى: أنك كلما زادت قوة أداة الوصول قَلَّ زمن الوصول ، وهذا موجز نظرية الحركة ، وإذا كان الذى أسرى هو الله سبحانه ، وهو قوة القوى ؛ لذلك لا يمكن أن يقاس بالنسبة لمشيئة قوة أخرى ، أو أن يقاس الأمر ببُعْد أو قُرْب المكان أو كيفية الزمان الذى تعرفه.

وإياك أن تفهم أن إسراء الله تعالى مثل إسرائك ؛ لأن الفعل إنما يأخذ قوته من الفاعل ، وما دام الفاعل هو الله سبحانه فلا أحد بقادر أن يَحُدَّ أفعاله بزمن.

وقد استهل الحق سبحانه سورة الإسراء بالسبحانية وآياتها الأولى تتكلم فى أدق شىء تكلم فيه رسول الله ﷺ عن ذاته بأنه قد أُسْرِىَ به ، وبذلك

أثبت بحادث الإسراء حقيقة المعراج ، وأن الناموس [1] قد خُرق له ، وحدَّثنا عما نعلم لنصدِّق حديثه عما لا نعلم ، وحتى نقيس ما لا نعلم على ما نعلم ، فيتأكد لنا صدقه ﷺ في حديثه عما لا نعلم.

كلمة «سبحانه» -إذن - هي للتنزيه ، وهي لله تعالى أزلاً قبل أن يَخلق الخَلق ، فقد شهد سبحانه لذاته أنه إله واحد ، ثم شهدت الملائكة ، ويتكرر التسبيح من كل المخلوقات التي أوجدها الله سبحانه.

وأنت تجد سور القرآن الكريم التي جاء فيها التسبيح مؤكدة أنه سبحانه مُنزَّه ، وله التسبيح من قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق ؛ ليسبِّحوا ، ففي سورة الحديد يقول سبحانه:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ① ﴾ [الحديد]

ويقول سبحانه في سورة الحشر:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ① ﴾ [الحشر]

فهل سبَّح كل من في السموات ومن في الأرض مرة واحدة وانتهى الأمر؟ لا ؛ لأن الله سبحانه يقول:

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ .. ① ﴾ [الجمعة]

ويقول سبحانه في سورة التغابن:

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① ﴾ [التغابن]

---

(١) نواميس الكون : الأسرار التي أودعها الله -سبحانه وتعالى- في الكون ، من قوانين تنظم حركة أجزائه ومكوناته.

إذن: فالسبحانية لله أزلاً ، وسبَّح ويسبِّح الخَـلْق وكل الوجود بعد أن خـلقه الله سـبحـانه ، سمـوات وأرض وما فيهما ومن فيهما ، وما بقى إلا أنت أيها الإنسان فسبِّحْ باسم ربك الأعلى.

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ .. (٦٨) ﴾ [يونس]

وعلة التسبيح والتنزيه عن أن يكون له ولد تـأتى فى قـولـه تعـالى : ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ ؛ لأن اتخـاذ الولد إنمـا يكون عن حـاجة ، إمـا استعـانة ، وإما اعتماداً ، وإما اعتداداً ، وإما امتداداً ، وكل هذه أمور باطلة بالنسبة له سبحانه ، وهو الحق الأعلى ، وهو سبحانه القـائل فى آيـة أخرى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) ﴾ [البقرة]

والقنوت [1] معناه: الإقرار بالعبودية لله تعالى والخضوع له وإطاعته.

ويقول سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [يونس]

و«إنْ» قد تأتى للنفى فى مثل قول الحق سبحانه :

﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ..(٢) ﴾ [المجادلة]

وفى قول الحق سبحانه هنا:

---

(١) قنت يقنتُ كنصَرَ - ذل وخضع ليده ، وقنت المؤمن بالله : أطاعه وأقر له بالعبودية ، وقنت فى صلاته خشع واطمأن ، وقنت دعا وأطال الدعاء ، والقنوت الطاعة والدعاء . قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] وقوله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) ﴾ [البقرة] أى : خاضعون معترفون بألوهيته مطيعون - [القاموس القويم - بتصرف]

﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا .. (٦٨) ﴾ [يونس]

أى: ليس عندكم حُجَّة تدل على أن الله تعالى اتخذ ولداً.

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [يونس]

أى: أنكم لا تملكون إعلاماً من الله تعالى بذلك، فلا إعلام عن الله إلا من الله، وليس لأحد أن يُعْلِم عن ربه، فهو سبحانه من يُعْلِم عن نفسه.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) ﴾

والحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن الإيمان وثمرته ونهايته يأتى بالفَلاَح كنتيجة لذلك الإيمان، فهو سبحانه القائل:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا[1] (٩) ﴾ [الشمس]

وهو سبحانه القائل:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) ﴾ [المؤمنون]

ويقول أيضاً:

﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

وكلها من مادة «الفلاح» وهى مأخوذة من الأمر الحسى المتصل بحياة الكائن الحى، فمقومات وجود الكائن الحى: نَفَس، وماء، وطعام،

(١) زكاها: طهرها وبرأها من أقذار البدن والنفس.

والتنفس يأتى من الهواء الذى يحيط بالأرض ، والماء ينزل من السماء أو يُستنبط مما تسرب فى باطن الأرض. والطعام يأتى من الأرض ، وكل ما أصله من الأرض يُستخرج بالفلاحة.

لذلك نقول: إن الفلاَحة هى السبب الاستبقائى للحياة ، فكما يُفْلح الإنسان الأرض ، ويشَقها ويبذر فيها البذور ، ثم يرويها ، ثم تنضج وتخرج الثمرة ، ويقال: أفلح ، أى: أنتجت زراعته نتاجاً طيباً.

وشاء الحق سبحانه أن يسمِّى الحصيلة الإيمانية الطيبة بالفلاح.

وبيَّن لنا رسول الله ﷺ أن الدنيا مزرعة الآخرة ، فإن كنت تريد ثمرة فابذل الجهد.

وإياك والظن أن الدين حينما يأخذ منك شيئاً فى الدنيا أنه يُنْقِص ما عندك ، لا ، بل هو يُنمِّى لك ما عندك [1].

والمثل الذى أضربه دائماً - ولله المثل الأعلى - نجد الفَلاَّح حين يزرع فداناً بالقمح ، فهو يأخذ من مخزنه إردباً ؛ ليستخدمه كبذور فى الأرض ، ولو كانت امرأته حمقاء لا تعرف أصول الزراعة ستقول له: «أنت أخذت من القمح ، وكيف تترك عيالك وأنت تنقصهم من قوتهم ؟ »

هذه المرأة لا تعلم أنه أخذ إردبَّ القمح الـمُخَزَّن ؛ ليعود به بعد الحصاد عشرة أو خمسة عشر إردباً من القمح.

كذلك مطلوب الله سبحانه فى الدنيا قد يبدو وكأنه ينقصك أشياء ، لكنه يعطيك ثمار الآخرة ويزيدها.

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ما عندكُمْ ينفدُ وما عند الله باقٍ .. (٩٦)﴾ [النحل] وقوله : ﴿وما تُنفقُوا من شيْءٍ فى سبيلِ الله يُوفَّ إليكُمْ ..(٦٠)﴾ [الأنفال] وقوله : ﴿من جاء بالْحسنة فلهُ عشْرُ أمثالها ..(١٦٠)﴾ [الأنعام] وقوله : ﴿إن تُقْرضُوا الله قرْضًا حسنًا يُضاعفْهُ لكُمْ ويغْفرْ لكُمْ ..(١٧)﴾ [التغابن]

إذن: فالفلاح مادة مأخوذة من فلح الأرض وشقها وزرعها لتأخذ الثمرة.

وكما أنك تأخذ حظك من الثمار على قدر حظك من التعب ومن العمل، فذلك أمر الآخرة وأمر الدنيا.

ومثال ذلك: الفلاح الذي يحرث الأرض، ويحمل للأرض السماد على المطية [1]، ثم يستيقظ مبكراً في مواعيد الري، تجد هذا الفلاح في حالة من الانشراح والفرح في يوم الحصاد، وأمره يختلف عمن يهمل الأرض ويقضي الوقت على المقهى، ويسهر الليل أمام التليفزيون، ويأتي يوم الحصاد ليحزن على محصوله الذي لم يحسن زراعته.

وقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ [2] (٦٩) ﴾ [يونس]

أي: هؤلاء الذين يقولون عن الله تعالى أو في الله تعالى بغير علم من الله، هم الذين لا يفلحون.

وأوضحت من قبل أن كل ما يتعلق بالله تعالى لا يُعْلَم عنه إلا عن طريق الله. لكن ما الذي يحملهم على الافتراء؟

نعم، إن كل حركة في الحياة لا بد أن يكون الدافع إليها نفعاً، وتختلف النظرة إلى النفع وما يترتب عليه، فالطالب الكسول المتسكع في الشوارع، الرافض للتعلم، نجده راسباً غير موفق في مستقبله، أما التلميذ الحريص على علومه، فهو من يحصل على المكانة اللائقة به في المجتمع، والتلميذ الأول كان محدود الأفق ولم ير امتداد النفع وضخامته، بل قصر النفع على لذة عاجلة مُضحِّياً بخير آجل.

---

(١) المطية: الدابة، وهي الناقة التي يُركَب مطاها أي: ظهرها. وجمعها: مطايا. [لسان العرب: مادة (م ط ي)].

(٢) يفترون الكذب: يكذبون، أو يقولون بغير علم. لا يفلحون: لا يفوزون ولا ينتصرون. قال تعالى: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) ﴾ [طه].

والذى جعل هؤلاء يفترون على الله الكذب هو انهيار الذات ، فكل ذات لها وجود ولها مكانة ، فإذا ما انهارت المكانة ، أحس الإنسان أنه بلا قيمة فى مجتمعه.

والمثل الذى ضربته من قبل بحَلاَّق الصحة فى القرية ، وكان يعالج الجميع ، ثم تَخرَّجَ أحد شباب القرية فى كلية الطب وافتتح بها عيادة ، فإن كان حلاق الصحة عاقلاً ، فهو يذهب إلى الطبيب ليعمل فى عيادته ممرضاً ، أو (تمرجياً) ، أما إن أخذته العزة بالإثم ، فهو يعاند ويكابر ، ولكنه لن يقدر على دفع عِلْم الطبيب.

وكذلك عصابة الكفر ورؤساء الضلال حينما يُفاجَأون بمَقْدم رسول من الله ، فهم يظنون أنه سوف يأخذ السيادة [1] لنفسه ، رغم أن أىَّ رسول من رسل الله تعالى - عليه السلام - إنما يعطى السيادة لصاحبها ، ألا وهو الحق الأعلى سبحانه.

وحين يأخذ منهم السيادة التى كانت تضمن لهم المكانة والوجاهة والشأن والعظمة ، فهم يصابون بالانهيار العصبى ، ويحاولون مقاومة الرسول دفاعاً عن السلطة الزمنية.

ومثال ذلك: هو مَقْدمُ النبى ﷺ إلى المدينة ، وكان البعض يعمل على تنصيب عبد الله بن أبىّ ليكون مَلِكاً [2] ؛ ولذلك قاوم الرجل الإسلام ،

---

(١) وهذا مخالف لمنطق الرسول ﷺ ومفهوم الدعوة ، حيث عرض عليه الكفار المال والملك والسلطان والجاه ، فاختار رب الكل ، وقال قولته التى سجلها الزمن وحفظتها العقول الواعية : « والله ولو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته » أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٦٦).

(٢) أورد ابن إسحاق فى السيرة أن قوم عبد الله بن أبى كانوا « قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله برسوله وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مُصراً على نفاق وضغن » سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٦).

وحين لم يستطع آمن نفاقاً ، وظل على عدائه للإسلام ، رغم أنه لو أحسن الإسلام واقترب من رسول الله ﷺ لنال أضعاف ما كان سيأخذه لو صار ملكاً.

وهكذا قادة الضلال وأئمة الكفر ، هم مشفقون على أنفسهم وخائفون على السلطة الزمنية ؛ لأن الرسول حينما يجيء إنما يُسوِّى بين الناس ؛ لذلك يقفون ضد الدعوة حفاظاً على السلطة الزمنية.

ولذلك يقول الحق سبحانه عن سبب افترائهم الكذب :

﴿ مَتَٰعٌ(١) فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

ويعزُّ - إذن - على قادة الكفر وأئمة الضلال أن يسلبهم الرياسة والسيادة داع جديد إلى الله سبحانه وتعالى ، ويخافون أن يأخذ الداعى الجديد لله الأَمر منهم جميعاً ، لا إلى ذاته ، ولكن إلى مراد ربه.

ولو كان الداعى إلى الله تعالى يأخذ السلطة الزمنية لذاته ؛ لقلنا : ذاتٌ أمام ذات ، ولكنه ﷺ أوضح أنه يعود - حتى فيما يخصه - إلى الله سبحانه وتعالى.

ويكشف لنا الحق سبحانه الكسب القليل الذى يدافعون عنه أنه :

(١) المتاع : التمتع ، وهو كل ما ينتفع به ويرغب فى اقتنائه ، كالطعام ، وأثاث البيت ، والسلعة ، والأداة ، والمال [المعجم الوسيط] والمراد أن الله سبحانه وتعالى يترك الكفار يتمتعون بمتاع الدنيا الزائل - لأن الدنيا كلها لا تساوى عند الله سبحانه جناح بعوضة - ولكنه سيعاقبهم على كفرهم بالعذاب الشديد فى الآخرة ويحرمهم من نعيم الجنة. ويقصد بالمتاع أيضاً الزوجة الصالحة مصداقاً لقول رسول الله ﷺ « الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة ».
أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الرضاع - باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة ، حديث (٥٩) عن عبد الله بن عمرو ، وعند أبى نعيم فى حلية الأولياء (٣/ ٣١٠) زيادة « إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ».

﴿ مَتَاعٌ في الدُّنْيَا ..(٧٠) ﴾ ؛ لأن كُـلاً منهم يحب أن يقنع نفسه ، بحُمْق تقدير المنفعة ، وكلمة «الدنيا» لا بد أن منها حقيقة الشيء المنسوبة إليه.

والأسماء - كما تعلم - هي سمات مسميات ، فحين تقول: إن فلاناً طويل ، فأنت تعطيه سمة الطول.

وحين تقول: «دنيا» فهي من «الدُّنُوّ» أو « الدناءة» .

وإن اعتبرت الدنو هو طريق موصل إلى القمة ، فهذا أمر مقبول ؛ لأن الدرجة الأولى في الوصول إلى الأعلى هي الدنو ، وتلتزم بمنهج الله تعالى فتصعد عُلواً وارتفاعاً إلى الآخرة.

إذن: فمن يصف الدنيا بالدناءة على إطلاقها نقول له: لا ، بل هي دنيا بشرط أن تأخذها طريقاً إلى الأعلى ، ولكن من لا يتخذها كذلك فهو من يجعل مكانته هي الدنيئة ، أما من يتخذها طريقاً إلى العلو فهو الذي أفلح باتِّباع منهج الله تعالى.

إذن: فالدنيا ليست من الدناءة ؛ لأن الدين ليس موضوعه الآخرة ، بل موضوعه هو الدنيا ، ومنهج الدين يلزمك بـ «افعل» و «لا تفعل» في الدنيا ، والآخرة هي دار الجزاء ، والجزاء على الشيء ليس عين موضوعه ، وأنت تستطيع أن تجعل الدنيا مفيدة لك إنْ جعلتها مزرعة للآخرة.

وإياك أن تعمل على أساس أن الدنيا [1] عمرها ملايين السنين ؛ لأنه لا يعنيك كعائش في الدنيا إن طال عمرها أم قَصُرَ ، بل يعنيك في الدنيا مقدار مُكْثك فيها ، وعمرك فيها مظنون ، بل وزمن الدنيا كله

(١) وقد وصف لنا رب العزة سبحانه الدنيا فقال : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ..(٧٧) ﴾ [النساء] وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) ﴾ [يونس]

مظنون ، وهناك من يموت وعمره ستة أشهر ، وهناك من يموت وعمره مائة سنة ، وكلٌ يتمتع بقدر ما يعيش ، ثم يرجع إلى الله سبحانه وتعالى .

وهؤلاء الذين ضَلُّوا وقالوا على الله سبحانه افتراء ، هؤلاء لن يفلتوا من الله ؛ لأن مرجعهم إليه سبحانه ككل خَلْقه ، وهؤلاء المُضِلُّون لم يلتفتوا إلى عاقبة الأمر ، ولا إلى من بيده عاقبة الأمر ، ولم يرتدعوا .

ولكن من نظر إلى عاقبة الأمر وأحسن في الدنيا فمرجعه إلى حسن الثواب والجنة ، ومن لم ينظر إلى عاقبة الأمر وافترى على الله - سبحانه وتعالى - الكذب فالمآب والمآل [1] إلى العذاب مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يونس]

ودرجة العذاب تختلف باختلاف المعذِّب ، فإن كان المعذِّب ضعيفاً ، فتعذيبه يكون ضعيفاً ، وان كان المعذِّب متوسط القوة ؛ فتعذيبه يكون متوسطاً ، أما إن كان المعذِّب هو قوة القوى فلا بد أن يكون عذابه شديداً ، وهو سبحانه الحق القائل :

﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [2] ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود]

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن مبدأ تنزيه الألوهية عن اتخاذ الولد ، فهو سبحانه الغنيُّ الذي له ما في السموات والأرض ، وبيَّن لنا سبحانه أننا يجب أن نأخذ المنهج من مصدر واحد وهو الرسل المبلِّغون عن الله تعالى ، شاء الحق سبحانه أن يكلمنا عن موكب الرسالات ؛ لأن الكلام حين يكون كلاماً نظرياً ليس له واقع يسنده ، فقد تنسحب النظرية عليه .

أما إن كان للكلام واقع في الكون يؤيد الكلام النظري ، فهذا دليل على صحة الكلام النظري ؛ ولذلك فنحن حين نحب أن نضخِّم مسألة من

(١) المآب والمآل : المرجع والمصير .

(٢) أليم : صيغة مبالغة من الألم ، وشديد : صيغة مبالغة من الشدة ، أي : شديد الألم .

المسائل فى داء اجتماعى ، نحاول أن نصنع منه رواية ، أى : أمراً لم يحدث حقيقة ، ولكننا نتخيل أنه حقيقة ؛ لنبيِّن الأمر النظرى فى واقع متخيَّل .

ويقص علينا الحق سبحانه فى القرآن قصصاً من الموكب الرسالى ؛ ليبيِّن للكفار : أنكم لن تستطيعوا الوقوف أمام هذه الدعوة ، وأمامكم سجل التاريخ ، وأحداث الرسل مع أممهم ؛ المؤيدين بالمؤمنين ؛ والكفار المعاندين والمعارضين ، فإن كان قوم من السابقين قد انتصروا على رسولهم ، فللكفار الحق فى أن يكون لهم أمل فى الانتصار على رسول الله ﷺ [1] .

ولا بد أن يكون هذا الكلام موجهاً إلى أناس لهم علم ببعض أحداث الموكب الرسالى . ولكن قد يكون علم هذا قد بهت ؛ لأن الزمان قد طال عليه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ [2] (٧١) ﴾

---

(١) وقد جاءت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تحث الكافرين وغيرهم على النظر فى عاقبة المكذبين والمجرمين ، نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١) ﴾ [الأنعام] . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) ﴾ [النمل] .

(٢) كبر : عظم وشق عليكم . مقامى : إقامتى بينكم . تذكيرى بآيات الله : دعوتى إياكم إلى الإيمان بالله تعالى . فعزمتم على قتالى وطردى ، فبالله آمنت ، وبه وثقت ، وعليه اعتمدت وتوكلت . فأجمعوا أمركم : اعزموا على ما تعزمون عليه وادعوا شركاءكم . غمة : ملتبساً مبهماً ، أى : كونوا جميعاً يداً واحدة ضدى ، واقضوا إلىَّ : أى : امضوا إلى ما فى أنفسكم وافرغوا منه . ولا تُنظرون : لا تؤخرون ولا تمهلون . وشدة إيمان نوح - عليه السلام - بالله تعالى وثقته فى نصرته إياه هى التى دعته لأن يتحدى قومه الكافرين هذا التحدى ؛ فكان نصر الله له ، والغرق والهلاك لأعدائه بالطوفان . [مختصر تفسير الطبرى - بتصرف] .